(٩٣) محمد بن الفضل[١]

ذكر محمد بن الفضل قدّس اللهُ روحه العزيز:

المتمكّنُ بالكرامات والحقائق، المتعيّن بالإشارات والدقائق؛ المقبول لدى الطوائف، المخصوص باللطائف؛ في فردوس العشق والعقل، أبو عبد الله محمد بن الفضل رحمة الله عليه.

كان من كبار مشايخ خراسان، والممدوح من الجميع، ولم يكن له مثيلٌ في الرياضات وتحمُّل المشاق، وكان بلا نظيرٍ في الفتوّةِ والمروءة.

وهو من مُريدي أحمد بن خضرويه، وكان قد رأى الترمذي.

وكان أبو عثمان الحيري يودُّهُ كثيرًا حتى أنه كتب إليه مرَّةً رسالةً يسأله فيها عن علامة الشقاوة، فأجاب: ثلاث علامات: إحداها أن يرزقه اللهُ العلمَ ويحرمه العمل؛ ثانيها أن يمنحَهُ العلمَ ويحرمه الإخلاص؛ وثالثها أن يرزقه صحبة الصالحين ويحرمه إظهار الاحترام لهم.

قال أبو عثمان الحيري: محمد بن الفضل ينقد الرجال[٢].

---

(١) هو محمد بن الفضل البلخي أبو عبد الله، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٢١٢، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢، الرسالة القشيرية ٧٨، صفة الصفوة ٤/ ١٦٥، المنتظم ٦/ ٢٣٩، مناقب الأبرار ١٢١، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٢٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٢٣، العبر ٢/ ١٧٦، مرآة الجنان ٢/ ٢٧٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١١/ ١٦٧، طبقات الأولياء ٣٠٠، نفحات الأنس ١٧٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣١، طبقات الشعراني ١/ ٢٨٨، الكواكب الدرية ٢/ ١٤٩، شذرات الذهب ٢/ ٢٨٢.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٥٦) بين ترجمتي أبي محمد المرتعش وأبي الحسن البوشنجي.

(٢) في الرسالة القشيرية ٧٨: محمد بن الفضل سِمْسَار الرجال.

وقال أبو عثمان الحيري على جلالة قدره: لو أن لي قوةً لذهبتُ لأجلس في كنف محمد بن الفضل ليصفو سرِّي برؤيته.

وقد رأى الكثير من الجفاء من أهل بلخ، حتى أخرجوه منها، فدعا عليهم بقوله: يا ربّ، اسلبهم الصدق.

وروي أنه سئل: بماذا تحصلُ سلامة الصدور؟ فقال: بالوقوف على الحقِّ اليقين[١]، وهي حياةٌ يمنحُ بعدها علم اليقين، ليطالع عينَ اليقين بعلم اليقين، لينال السلامة. وما لم تكن عينُ اليقين لم يكن علم اليقين. فما لم يرَ أحدٌ الكعبةَ لم يكن ليتيقَّنها أبدًا. إذن فقد عُلِمَ أن علمَ اليقين يُصبح مُمكنًا بعد عين اليقين، فذلك هو العلم الذي كان قبل عين اليقين، وإنَّما يتحقَّقُ ذلك بالهمَّةِ، وإنَّما جاء الاجتهادُ من أنّه يُصيبُ مرَّةً ويُخطىء أُخرى. ولمّا ظهرَ علمُ اليقين أمكن به مطالعة أسرار وحقائق علم اليقين، ومثاله هو أن شخصًا سقط في بئرٍ، وظلَّ حتى كبر فيها، وفجأةً أُخرج منها، فيتحيَّرَ في الشمس، ويظلُّ مدَّةً ساكنًا حتى يعتادَ رؤيتها. فإلى أن يتحقَّقَ علمُهُ بالشمس يستطيع بذلك العلم مطالعة أسرار الشمس.

وقال: عجبتُ لمن يذهب بهواه إلى بيته تعالى ويزوره، ترى لماذا لا يدوسُ على هواه حتى يبلغه ويراه عزّ وجلّ؟

وقال: إنَّ الصُّوفي هو من يكون صافيًا من جميع البلايا، وغائبًا عن جميع العطايا.

وقال: الراحةُ في الإخلاص من أماني النفس[٢].

وقال: إنَّ المُريدَ إذا نظر إلى الدنيا من زاوية الخاطر، فلا تُشغلنَّ بالَكَ في أمره، فقد أصبح مدبرَ الطريقة.

وقال: الإسلام يُفارقُ الإنسان لأربعةِ أمورٍ: أحدها أن لا يعمل بما يعلم،

---

(١) انظر صفحة ٥٥٠.

(٢) في الرسالة القشيرية ٧٨: الراحةُ في السُّجن من أماني النفس. اهـ. والسجن هو الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن».

وثانيها أن يعمل بما لا يعلم، وثالثها أن لا يبحث عمّا لا يعلم، ورابعها أن يمنع الناسَ من التعلّم.

وقال: العلم ثلاثةُ أحرفٍ: عينٌ ولام وميم، فالعين علم، واللام عمل، والميم مخلصُ الحقِّ في العمل والعلم.

وقال: أكبرُ أهلِ المعرفة أكثرُهم اجتهادًا في أداء الشريعة، وأشدُّهم رغبةً في حفظِ السنة والمداومة.

وقال: المحبَّةُ إيثارٌ، وهي أربعة معانٍ: الأول دوام الذكر في القلب والسرور بذلك. الثاني الأنس الشديدُ بذكر الحقِّ. الثالث قطع الانشغال، والانقطاع عن كلِّ قاطع. الرابع تفضيلُ الحقِّ على الذات وعلى كلِّ ما سواه، كما قال الحقُّ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ..﴾ الآية [التوبة: ٢٤]. وإنّ صفة مُحبّي الحقِّ هي أنَّ محبَّتَهم كانت تعني الإيثار. وعقب ذلك تذهب معاملتهم إلى أربعة منازل: أولاها المحبة، وثانيها الهيبة، وثالثها الحياء، ورابعها التعظيم.

وقال: إيثارُ الزاهدين يكونُ في وقت انعدام الحاجة، وإيثار الفتيان يكون وقت الحاجة[1].

وقال: الزهد في الدنيا هو في الترك، فإن لم تستطع فبالإيثار، وإن لم تستطع فستعيش ذليلاً.

* * *

(١) الرسالة القشيرية ٢٠٣ (الزهد): إيثار الزاهدين عند الاستغناء، وإيثار الفتيان عن الحاجة.